3 مقالات

1

أين نحن؟

أريد، على الأقل، أن أقول شيئا عن الألم الموجود في العالم اليوم. فثقافة الاستهلاك التي أصبحت الأكثر قوّة، وانتشارا، في كوكبنا، تحاول إقناعنا بأن الألم حادثة عرضية، يمكننا تفاديها. وهذه هي القاعدة المنطقية لأيديولوجيا القسوة.

يعرف الجميع، بالطبع، أن الألم رديف الحياة، لكنهم يريدون تناسي هذا الأمر، أو جعله نسبيا. وجميع تنويعات أسطورة السقوط من الزمن الذهبي، قبل وجود الألم، محاولات لجعل الألم الذي نعانيه على الأرض مسألة نسبية. وكذلك الأمر بالنسبة لاختراع الجحيم، ملكوت الألم المألوف باعتباره نوعا من العقاب. والأمر نفسه بالنسبة للتضحية. وفي ما بعد، في وقت لاحق اختراع مبدأ التسامح. وبالتالي ربما يقول الإنسان إن الفلسفة بدأت بسؤال: لماذا الألم؟

ومع ذلك، بعد كل هذا الكلام، ربما يكون ألم العيش في العالم، في الوقت الحالي، غير مسبوق نوعا ما.

أكتب في العتمة، رغم أن الوقت نهار. يوم في مطلع أكتوبر **2002**. كانت السماء لمدة أسبوع تقريبا زرقاء فوق باريس. تغرب الشمس يوميا في وقت أبكر بقليل من اليوم السابق، والنهار جميل متألق. يخشى الكثيرون أن تسارع القوات الأميركية، قبل انتهاء الشهر بوقت طويل، إلى شن »حرب وقائية« ضد العراق، لكي تسيطر شركات النفط الأميركية على المزيد ـ ومن المفترض على الأضمن ـ من الموارد النفطية. ويأمل آخرون أن يتم تجنب هذه الحرب. ولكن بين القرارات المعلنة، والحسابات السرية، تظل الأشياء ملتبسة، وبما أن الأكاذيب تمهد الطريق أمام الصواريخ، فإنني أكتب في ليل العار.

لا أعني بالعار مشاعر الذنب الشخصية. العار كما أتهيأ لمعرفته، نوع من المشاعر يفسد على المدى الطويل طاقة الأمل، ويمنعنا من النظر إلى الأمام. ننظر إلى أقدامنا في الأسفل، لنفكر، فقط، في الخطوة الصغيرة التالية.

يتساءل الناس في كل مكان ـ وفي ظل ظروف شديدة الاختلاف ـ أين نحن؟ يتعلق السؤال بالتاريخ لا بالجغرافيا. ما الذي نعيشه الآن؟ نؤخذ إلى أين؟ ما الذي ضاع منّا؟ كيف نستمر في العيش بلا رؤيا للمستقبل جديرة بالتصديق؟ ولماذا فقدنا القدرة على النظر إلى ما هو أبعد من أعمارنا؟

يقول الخبراء المتمرسون: العولمة. ما بعد الحداثة. ثورة الاتصالات. الليبرالية الاقتصادية. التعبيرات حشو ومراوغة. وعند الرد على سؤال أين نحن؟ يغمغم الخبراء: في لا مكان.

أليس من الأفضل أن نرى ونعلن أننا نعيش في أكثر أنواع الفوضى التي وجدت حتى الآن تسلطا ـ لأنها الأكثر انتشارا. ليس من السهل إدراك معنى الطغيان لأن البنية التي يستمد قوته منها (بداية من أكبر مائتي شركة متعددة القوميات ووصولا إلى البنتاغون) متداخلة وفي الوقت نفسه متشعبة، استبدادية وفي الوقت نفسه مبهمة، كلية الوجود وفي الوقت نفسه لا مكان بعينه يجمعها. تمارس التسلّط بعيدا عن الساحل [أي من خارج الحدود الإقليمية]. ولا يقتصر الأمر على القانون المالي، بل يتعداه إلى السيطرة السياسية على ما لا يقع داخل نطاقها. هدفها زحزحة العالم برمته. وإستراتيجيتها ـ التي يبدو معها بن لادن مجرد حكاية للأطفال ـ زعزعة الوجود لكي ينهار كل شيء ويسقط في نطاق فهمها الخاص للواقع، الذي سيكون ـ وهذه عقيدة الطغيان ـ مصدر فائدة لا تنضب. ثمة ما يوحي بالغباء، لكن النظم المتسلّطة غبية، والمنظومة الحالية غبية لأنها تدمّر على كل المستويات حياة الكوكب، الذي تمارس نشاطها فيه.

وإذا ما نحيّنا الأيديولوجيا جانبا، فإن قوّة منظومة الطغيان تعتمد على نوعين من التهديد: الأوّل هو التدخل عن طريق الجو من جانب أكثر الدوّل تسلّحا في العالم، ويمكن تسمية هذا بتهديد ال ب 52، والثاني الديون والإفلاس، أي المجاعة على ضوء علاقات الإنتاج القائمة في العالم، ويمكن تسمية هذا بالتهديد صفر.

تبدأ مشاعر العار بالطعن في شيء ما (نقر بوجوده في مكان ما، وبسبب العجز نصرف النظر عنه) لأن الكثير من المعاناة الحالية يمكن تخفيفها، أو تفاديها، إذا اتخذت قرارات معيّنة، واقعية، وبسيطة نسبيا. وهناك الآن علاقة مباشرة بين محاضر الاجتماعات، ولحظات العذاب.

هل يستحق إنسان ما أن يحكم عليه بالموت المؤكد لمجرد أنه لا يستطيع الوصول إلى علاج يكلّف أقل من دولارين في اليوم؟ طرحت هذا السؤال مديرة منظمة الصحة العالمية في يوليو الماضي. كانت تتكلّم عن وباء الإيدز في أفريقيا، وأماكن أخرى، سيموت فيها قرابة 68 مليونا من البشر خلال 18 سنة قادمة. أنا أتكلّم عن الألم الناجم عن العيش في عالم اليوم.

إن معظم تحليلات وتشخيصات ما يجري في العالم تُعرض وتُدرس في إطار تخصصات مستقلة عن بعضها: سياسة، دراسات إعلامية، صحة عامة، بيئة، دفاع وطني، علم إجرام، تربية. .الخ وفي الواقع يلتحق كل من هذه الحقول المستقلة بالآخر لرسم الصورة الحقيقية لما نعيشه. ويحدث أن يعاني الناس في حياتهم من مظالم تصنّف ضمن خانات مستقلة، رغم معاناتهم منها في وقت واحد، وبلا انفصال.

أحد الأمثلة الراهنة، بعض الأكراد الذين هربوا إلى شيربورغ في الأسبوع الماضي ـ ورُفض طلبهم للحصول على اللجوء السياسي من جانب الحكومة الفرنسية، ويواجهون خطر الطرد إلى تركيا ـ هؤلاء فقراء، غير مرغوب فيهم سياسيا، لا يملكون الأرض، متعبون، غير قانونيين، ولا يحميهم أحد. وهم يعانون هذه

الظروف مجتمعة، وفي وقت واحد.

لذلك، من الضروري لمعرفة ما يجري توّفر رؤيا ذات تخصصات مختلفة، لتتمكن من ربط »التخصصات« التي تُفصل عن بعضها في المؤسسات. وكل رؤيا كهذه ستكون سياسية (بالمعنى الأصلي للكلمة). فالشرط المسبق للتفكير سياسيا على مستوى العالم يستدعي النظر إلى وحدة المعاناة غير الضرورية التي تحدث في العالم. هذه هي نقطة البداية.

أكتب في العتمة، لكنني لا أرى الطغيان، فقط. فلو كان الأمر كذلك لما امتلكت الشجاعة للاستمرار. أرى أناسا في نومهم، يتملكهم النشاط، أراهم وقد نهضوا لشرب الماء، يتهامسون حول مشاريعهم، أو مخاوفهم، يمارسون الحب، يصلون، يطبخون شيئا ما بينما بقية الأسرة تغط في النوم. في بغداد، وشيكاغو (نعم، أرى أيضا الأكراد غير المرئيين دائما، الذين مات **4000** منهم بالغازات السامة على يد صدّام حسين ـ وبإذعان من جانب الولايات المتحدة) أرى صانعي الحلوى في طهران، أرى الرعاة، وقد بدوا مثل قطّاع الطرق، ينامون إلى جانب أغنامهم في سردينيا. أرى رجلا في حي فريدريك في برلين يجلس مرتديا بيجامته، في يده زجاجة بيره، يقرأ هايدغر، وتبدو يداه كيدي البروليتاري، أرى قاربا صغيرا للمهاجرين غير الشرعيين قبالة سواحل أسبانيا، قرب إليكانتي، أرى أما في مالي، اسمها آيا، ومعناها وُلدت يوم الجمعة، تهز وليدها لينام، أرى حطام كابول، حيث يعود رجل إلى البيت، وأعرف رغم الألم، أن براعة الناجين في العيش لم تنقص، براعة تكتسح وتجمع الطاقة، وفي الفطنة اللانهائية لهذه البراعة ثمة قيمة روحية، ثمة ما يشبه الروح القدس. أنا مقتنع بهذا في العتمة، رغم أنني لا أعرف السبب.

الخطوة التالية هي رفض خطاب الطغيان. فتعبيراته مجرد نفايات. في الخطابات المكررة اللامتناهية، في التصريحات، والمؤتمرات الصحافية، والتهديدات، التعبيرات المتواترة هي: الديمقراطية، العدالة، حقوق الإنسان، والإرهاب. وكل كلمة في هذا السياق تعني عكس ما كانت تعنيه في الأصل. كل كلمة أصبحت موضوعا للمتاجرة، أصبحت كلمة السر لدى عصابة، بعدما سرقت من بني الإنسان.

الديمقراطية اقتراح (نادرا ما جرى تطبيقه) حول كيفية اتخاذ القرارات: ولا علاقة لها بالحملات الانتخابية. إنها تعني أن القرارات السياسية ستتخذ في ضوء، وبعد التشاور مع المحكومين. وهذا يعتمد بالقدر نفسه على مدى اطلاع المحكومين على الموضوعات المعنية، كما يعتمد على قدرة متخذي القرارات، واستعدادهم، للإصغاء، ووضع ما سمعوه في الحسبان. ولا يجب خلط الديمقراطية »بحرية« الاختيار بين ثنائية [حزبية] أو بنشر استطلاعات الرأي، أو حشد الناس في الإحصاءات. فهذه الأشياء هي المظهر الشكلي للديمقراطية.

تتخذ القرارات في الوقت الحاضر، القرارات التي تسبب الألم غير الضروري، بصورة متزايدة، في كوكب الأرض، من جانب واحد، ودون استشارة، أو مشاركة أحد.

كم من المواطنين الأميركيين، على سبيل المثال، سيقول نعم، لا لبس فيها، لانسحاب بوش من معاهدة كيوتو حول تزايد المعدلات الحرارية للأرض، التي تسببت في فيضانات كارثية في مناطق مختلفة من العالم، وتنذر بالأسوأ خلال الخمسة وعشرين عاما القادمة. كم منهم سيؤيد هذا الأمر؟ إنني أعتقد، ورغم وجود »مدراء دعاية الموافقة« أن أقلية من الأميركيين ستؤيد هذا الانسحاب.

لقد ألّف دفوراك، منذ ما يزيد على قرن بقليل، سميفونيته عن العالم الجديد. كتبها في وقت كان يدير فيه معهدا للموسيقى في نيويورك، وألهمته كتابتها بعد ثمانية عشر شهرا ـ وما زال في نيويورك ـ لتأليف

كونشيرتو الكمنجات المهيب.

في السيمفونية تصبح التلال المتموّجة، والآفاق، في موطنه الأصلي بوهيميا، بشائر العالم الجديد. بشائر ليست مفخّمة بصورة مصطنعة، بل مدوية ومتصلة، لأنها رغبات فاقدي السلطة، أولئك الذين يدعون، خطأ، بالبسطاء، والذين توّجه دستور الولايات المتحدة الأميركية في العام 1787 إلى أمثالهم.

ولا أعرف عملا فنيا آخر (كان دفوراك ابن فلاّح، وقد حلم أبوه أن يصبح ابنه تاجر لحوم) يعبر بهذا القدر من المباشرة، ولكن بعناد، عن المعتقدات التي ألهمت جيلا بعد جيل من المهاجرين، الذين أصبحوا مواطنين أميركيين.

كانت قوّة تلك المعتقدات لدى دفوراك لا تنفصل عن نوع من الرّقة، وعن احترام للحياة يمكن العثور عليه عن قرب في أوساط المحكومين (كشيء يميزهم عن الحكّام) وبهذه الروحية استُقبلت السيمفونية من جانب الجمهور عند عرضها للمرّة الأولى في قاعة كارينجي (في 16 ديسمبر 1893).

وقد سُئل دفوراك عن رأيه في مستقبل الموسيقى الأميركية، فأوصى مؤلفي الموسيقى في أميركا بالاستماع إلى موسيقى الهنود والسود. السيمفونية القادمة من العالم الجديد عبّرت عن أمل بلا حدود، يرّحب بالآخرين، وهذه هي المفارقة لأنه يقوم على فكرة البيت. مفارقة اليوتوبيا.

اليوم، قوّة البلد نفسها، التي ألهمت هذه الآمال، قد سقطت في أيدي زمرة من المتعصبين (يريدون تقليص كل شيء ما عدا قوّة رأس المال) الجهلة (لا يعترفون إلا بواقع ما يمتلكونه من قوّة النيران) المنافقين (ازدواجية في المعايير، معيار لنا وآخر لهم) والمتآمرين الذين في حوزتهم طائرات ب 52. كيف حدث هذا الأمر؟ كيف تمكن بوش، وموردوك، وتشيني، وكريستول، ورامسفيلد..والبقية، وآرتورو أوي من الوصول إلى حيث هم الآن؟ السؤال متكلّف لأننا لا نملك إجابة واحدة بعينها، وبلا قيمة، لأن أحدا لا يملك حتى الآن إجابة يمكن أن تبعج قوتهم. لكن طرحه بهذه الطريقة، وفي العتمة، يبين جسامة ما حدث. نحن نكتب عن الألم في العالم.

الدينامية السياسية للطغيان الجديد ـ رغم حاجته إلى تكنولوجيا متطوّرة تساعده على الحركة ـ ذات بساطة فاقعة. اغتصاب كلمات الديمقراطية والحرية..الخ لفرض طريقة جني الأرباح ـ بصرف النظر عن الكوارث ـ وإشاعة الفوضى الاقتصادية في كل مكان. ضمان أن تتجه جميع الحدود وجهة واحدة: أي مفتوحة أمام الطغيان، ومغلقة في وجه الآخرين، ثم العمل على تصفية كل مقاومة ممكنة من خلال وصمها بالإرهاب.

لا، لم أنس زوجين قفزا من أحد برجي مركز التجارة العالمي لكي لا يفصلهما الموت حرقا عن بعضهما.

ثمة ما يشبه اللعبة، ويكلّف إنتاجه 4 دولارات، وهو، أيضا، إرهابي بلا جدال. اسمه اللغم المضاد للأفراد. وما أن تصبح هذه الألغام قيد الاستخدام حتى تستحيل معرفة من ستشوّه، أو تقتل، أو متى ستفعل ذلك. وفي هذه اللحظة هناك 100 مليون منها راقدة، أو مختفية تحت الأرض. ومعظم الضحايا الذين أصابتهم، والذين ستصيبهم، من المدنيين.

المقصود من الألغام المضادة للأفراد أن تشوّه أكثر مما تقتل، إنها تستهدف خلق المعوقين وهي مصممة من شظايا أُريد لها أن تطيل مدة العلاج الطبي، وتزيد من صعوبته، وقد اضطر معظم الضحايا إلى إجراء ثماني، أو تسع عمليات جراحية. ومن الآن، سيقتل، أو يشوّه ألفان من المدنيين في مكان ما من العالم، شهريا، بفضل هذه الألغام.

وصف اللغم ب »مضاد للأفراد« أمر قاتل من ناحية لغوية. فالأفراد غير معروفين، بلا أسماء، أو جنس، أو أعمار. الأفراد عكس الناس. التعبير يتجاهل الدم، الأطراف، الألم، عمليات القطع، الحميمية والحب. إنه يحيل الأمر إلى شيء مجرد تماما. وهكذا، عندما تلتصق كلمتاه بشحنة ناسفة يتحوّل إلى إرهابي.

يعتمد الطغيان الجديد، وإلى حد كبير ـ على غرار أشكال حديثة أخرى ـ على إساءة استخدام اللغة. وعلينا أن نعمل معا لاستعادة كلماتنا المختطفة، ورفض فظاعة الكلمات المهذبة التي يستخدمها الطغيان، وإلا فلن يبقى لدينا سوى كلمة العار.

هذه ليست بالمهمة البسيطة، لأن معظم الخطاب الرسمي للطغيان يتكوّن من صور، وإحالات، ومراوغة، ويفيض بالتلميحات. قليلة هي الأشياء التي تقال بطريقة صريحة ومباشرة. وفي الوقت الحاضر يدرك العسكريون والاقتصاديون من صنّاع الإستراتيجية أن للإعلام دوره الحاسم، ليس في إلحاق الهزيمة بالعدو الراهن، بل في الحيلولة دون التمرّد والاحتجاج، والفرار من الخدمة. وفي كل عملية استغلال من جانب الطغيان للإعلام ما يشير إلى مخاوفه الخاصة. الطغيان الحالي يخاف وقوع العالم في قبضة اليأس، وهذا الخوف عميق إلى حد أن صفة اليأس لا تستخدم أبدا إلا إذا كانت تعني الخطر.

إذا لم يتوّفر المال تصبح كل حاجة إنسانية مصدرا للألم.

يتظاهر الذين سرقوا السلطة، وليسوا جميعهم في سدة الحكم ـ لكي يضمنوا استمرارية السلطة إلى ما هو أبعد من الانتخابات الرئاسية ـ بأنهم ينقذون العالم ليتمكن ساكنوه من أن يصبحوا زبائن لهم. عالم الاستهلاك مقدس. وما لا يضيفونه إلى هذه القداسة أن أهمية المستهلكين تصدر عن حقيقة توليدهم للفائدة، وهي الشيء الوحيد المهم في الواقع. خفة اليد هذه تقودنا إلى صلب الموضوع.

يخفي زعم تخليص العالم افتراض المتآمرين بأن جزءا كبيرا من العالم ـ بما في ذلك معظم القارة الأفريقية، ونسبة كبيرة في أميركا الجنوبية ـ غير قابلة للخلاص. وكل ركن في الواقع لا يحتل مركز اهتمامهم غير قابل للخلاص. كما أن خلاصة كهذه تصدر بالضرورة عن الفكرة الجامدة القائلة بأن الخلاص الوحيد هو المال، وبأن المستقبل الكوني الوحيد هو الواقع ضمن أولوياتهم. أولويات بأسماء زائفة لا تعني في الواقع شيئا أكثر من الفوائد التي يجنونها.

أما أولئك الذين تساورهم تصوّرات أخرى للعالم، علاوة على الذين لا يستطيعون الشراء، والذين يعيشون بالكاد من يوم إلى يوم (حوالي **800** مليون) فهم بقايا متخلفة من زمن آخر، أو إذا قاوموا سلميا، أو بالسلاح، فهم إرهابيون. يخشاهم العالم لأنهم نذر الموت، ورسل المرض، أو العصيان.

وعندما يتم تحجيمهم (التحجيم كلمة أساسية من كلماتهم) يفترض الطغيان بسذاجة أن العالم سيتوّحد. لذا يحتاج إلى وهم فنتازيا النهاية السعيدة. فنتازيا لن تكون في الواقع سوى خراب العالم.

كل شكل من أشكال التعرّض لهذا الطغيان مفهومة. وكل حوار معه مستحيل. وبالنسبة لنا، لكي نعيش ونموت بطريقة لائقة، علينا تسمية الأشياء بطريقة لائقة. فلنستعد كلماتنا.

هذا الكلام مكتوب في العتمة. في الحرب لا يقف الظلام إلى جانب أحد، أما في الحب فإن الظلام يعني أننا معا.

2

الأشياء التي لم تقل

عشر رسائل خاطفة عن الصبر في مواجهة الجدران

-1

الريح نهضت في الليل، وأخذت مشاريعنا إلى البعيد

مثل صيني

-2

لا توجد مساكن للفقراء. لديهم بيوت لأنهم يتذكرون أمهات، أو جدات، أو عمّة ربتهم. المسكن قلعة، وليس حكاية، لأنه يحول دون اقتراب الخطر. المسكن يحتاج إلى جدران. يكاد كل واحد من الفقراء يحلم بمسكن صغير، كأنه يحلم بقسط من الراحة. ومهما تعاظم الازدحام، يعيش الفقراء في العراء، حيث لا يرتجلون مساكن، بل أماكن تخصهم. وهذه الأماكن أبطال في الحكاية، كما سكّانها. للأماكن حيواتها الخاصة التي تعيشها، ولا تنتظر كالمساكن حيوات الآخرين. يعيش الفقراء مع الريح، والرطوبة، والغبار المتطاير، والصمت، والضجيج الذي لا يُطاق (أحيانا مع الاثنين: أجل، هذا ممكن) مع النمل، وحيوانات كبيرة، مع روائح تصعد من الأرض، مع الجرذان، والدخان، والمطر، مع الاهتزازات القادمة من مكان آخر، مع الشائعات، مع حلول الظلام، ومع بعضهم البعض. ولا توجد بين السكّان، وهذه الأشياء، علامات فاصلة واضحة للعيان. فهي مترابطة بشكل يدعو إلى الحيرة، وهي ما يصنع حياة المكان.

«الشفق يأخذ مكانه، السماء مكسوّة بضباب رمادي اللون، وقد شرعت في إغلاق نفسها بالظلام، والريح التي أنفقت النهار تخشخش فوق الأجمات العارية، والأشياء الصغيرة الميتة استعدادا للشتاء، ترقد ساكنة في أماكن واطئة على الأرض».

لا يمكن قياس حجم الفقراء بصورة جماعية، فهم ليسوا الأغلبية في كوكب الأرض وحسب، بل هم في كل مكان، وتدل عليهم أصغر الأشياء. لهذا السبب فإن النشاط الأساس للأغنياء في الوقت الحاضر هو بناء الجدران. جدران من الخرسانة المسلحة، أجهزة مراقبة الكترونية، زخات من الصواريخ، حقول ألغام، نقاط تفتيش على الحدود، وشاشات عرض إعلامية غبية.

-3

حيوات الفقراء في أغلبها بلاء، تتخللها لحظات من الإشراق. لكل حياة منها نـزعتها الخاصة للإشراق، ولا مكان للشبه بين اثنتين (الامتثال عادة يحرص على تربيتها الأغنياء) اللحظات المشرقة تأتي عن طريق الحنان والحب ـ عزاء أن يجد الإنسان من يقبله، ويحتاجه، ويضمه، بفضل ما هو فجأة عليه. لحظات أخرى

يضيئها الحدس، بأن بني الإنسان، رغم كل شيء، يخدمون هدفا ما.

»نزار يقول هذا الشيء أو ذاك، يقول شيئا ما أكثر أهمية من أي شيء آخر« . آيديم خفضت الفتيلة في المصباح لتقتصد في استهلاك الكيروسين. فقد فهمت طالما أن هذا الشيء أو ذاك في الحياة أكثر أهمية من أي شيء آخر، من الضروري أن تعتني بكل شيء جيد توّفر لديها.

«لا أعرف ما هو الشيء الذي يهم آيديم، فعلا« يقول شاغاتيف »لم أفكر في هذا الأمر، لم يكن لدىّ وقت لذلك. ولكن إذا كنّا قد وُلدنا فلا شك أن شيئا فينا يستحق الاهتمام بالفعل».

آيديم تقول موافقة: «القليل الذي يهم.. والكثير لا يهم».

«آيديم أعدت وجبة العشاء، أخرجت رغيفا مسطحا من كيس، مسحته بدهن الغنم، وقسمته نصفين، أعطت شاغاتيف النصف الأكبر، وأخذت النصف الصغير لنفسها، مضغا طعامهما في صمت على ضوء المصباح الخافت. وفي أوست ـ يورت، والصحراء كانت الدنيا ساكنة، لا توحي بالثقة، ومظلمة»[1]

4-

يدخل اليأس من وقت لآخر إلى حيوات تعاني من البلاء. اليأس عاطفة تعقب الإحساس بالخيانة. ينهار الحلم تلو الآخر (حلم لم يصل بعد إلى مرتبة الوعد) واليأس يملأ الفراغ في الروح التي احتلها الحلم من قبل. ولا علاقة بين اليأس والعدمية.

العدمية في صيغتها المعاصرة تعني رفض الاعتراف بأي أولويات ما عدا الفائدة التي تعتبر أقصى غاية من غايات النشاط الاجتماعي، وهذا يعني بالضبط أن لكل شيء ثمنه. العدمية تسليم بأن الثمن هو كل شيء. وهي أحدث شكل من أشكال الجبن الإنساني. ولكن هذا ليس ما يعاني منه الفقراء في أغلب الأحيان.

«بدأ يشفق على جسده، وعظامه، لقد جمعتها أمه من أجله ذات يوم من فقر لحمها ـ ليس بدافع الحب، أو الشهوة، أو المتعة، بل بدافع أكثر حاجات الحياة اليومية ضرورية. وقد شعر بأنه ينتمي إلى آخرين، كأنه آخر ممتلكات الذين لا يملكون شيئا، وها هو يوشك على النفاد بلا هدف، ثم تملكته أعظم وأقوى موجة غضب في حياته»[2].

[كلمة على سبيل التوضيح بالنسبة لهذه المقتطفات، فهي مأخوذة من قصص الكاتب الروسي الكبير أندريه بلاتونوف (**1899-1951**) كتب عن الفقر الذي وقع أثناء الحرب الأهلية، ولاحقا خلال التعاونيات القسرية التي فرضتها الزراعة السوفياتية في أوائل الثلاثينات. وما يميّز هذا الفقر عن أنواع أخرى قديمة من الفقر، حقيقة أن الخراب الناجم عنه انطوى على آمال خائبة. آمال وقعت متعبة على الأرض، ثم نهضت على قدميها، تأرجحت، ومشت وسط شظايا وعود مغدورة، وكلمات مهشمة. وقد استخدم بلاتونوف كثيرا تعبير **dushevny bednyak**، ومعناه حرفيا أرواح فقيرة، إشارة إلى الذين أُخذ كل شيء منهم إلى حد أن الفراغ في داخلهم كان كبيرا، ولم يبق في ذلك الفراغ الكبير سوى أرواحهم، أي قدرتهم على الإحساس والمعاناة. إن قصصه لا تضيف إلى البلاء الذي عاشه الناس، بل تحفظ شيئا منه: «من بشاعتنا سينمو قلب العالم» كما كتب في أوائل العشرينات [من القرن العشرين]

يعاني العالم في الوقت الحاضر شكلا آخر من الفقر. ولا ضرورة للاستشهاد بالأرقام، فهي معروفة، وتكرارها يخلق جدارا جديدا من الإحصاءات. يعيش ما يزيد على نصف سكّان العالم على أقل من دولارين في اليوم. والثقافات المحلية بعلاجاتها الجزئية، المادية والروحية، لبعض مصاعب الحياة، تتعرض بطريقة

منهجية للتدمير، أو الهجوم. أما التكنولوجيات الحديثة، ووسائل الاتصال، واقتصاد السوق الحرّة، والوفرة الإنتاجية، والديمقراطية البرلمانية فقد أخفقت حتى الآن، وبقدر ما يتعلّق الأمر بالفقراء، في الحفاظ على وعودها، ولم تفعل سوى عرض سلع استهلاكية رخيصة، يستطيع الفقراء شراءها إذا سرقوا.

وقد فهم بلاتونوف معنى حياة الفقر الحديثة أكثر من أي كاتب قصص آخر.

-5

سر رواية الحكايات بين الفقراء قناعة بأن الحكايات تروى لتُسمع في مكان آخر، حيث يعرف شخص ما، أو جماعة من الناس، أفضل من راوي الحكايات، ومن أبطالها أنفسهم، معنى الحياة. لا يستطيع الأقوياء رواية الحكايات، لأن التباهي نقيض الحكايات، وكل حكاية مهما كانت معتدلة عليها أن تكون غير هيّابة، بينما يعيش الأقوياء بعصبية في الوقت الحاضر.

الحكاية تحيل الحياة إلى بديل ما، وإلى قاض أخير يوجد في مكان بعيد. ربما القاضي موجود في المستقبل، أو في الماضي الذي ما زال قادرا على المجاملة، أو ربما في مكان ما على التل، حيث تغيّرت حظوظ النهار (على الفقراء أن يكرروا الإشارة إلى الحظ السيئ والجيد) وأصبح عاثرو الحظ محظوظين.

زمن الحكاية (الزمن في داخل الحكاية) غير مستقيم، إذ يجتمع الأحياء والموتى فيه كمستمعين، وبقدر ما يزداد الإحساس بتزايد عدد المستمعين بقدر ما تزداد الحكاية حميمية في نظر كل واحد منهم. الحكايات طريقة معيّنة لمشاركة الآخرين في الاعتقاد بأن العدالة على وشك القدوم، وفي سبيل اعتقاد كهذا سيقاتل الأطفال، والنساء، والرجال بضراوة مذهلة في لحظة بعينها. لهذا السبب يخشى الطغيان سرد الحكايات، كما أن الحكايات تشير بطريقة معيّنة إلى نهاية الطغاة.

«في كل مكان يذهب إليه، كان يقول بأنه سيسرد حكاية، وكان الناس يستضيفونه للمبيت عندهم: حكاية أقوى من القيصر. ولكن كان ثمة هذا الشيء: إذا شرع في سرد الحكايات قبل العشاء، فلن يشعر أحد بالجوع، وبالتالي لن يجد شيئا للأكل. لذلك، كان الجندي القديم يطلب صحن حساء أولا»3.

-6

أسوأ أنواع القسوة في الحياة هي مظالمها القاتلة. تكاد الوعود كلها تذهب أدراج الرياح. لا يعتبر تسليم الفقراء بالحظ العاثر سلبية، أو تسليما بالقدر، بل موافقة ينظرون من خلالها إلى ما وراء الحظ العاثر، ويكتشفون شيئا لا يسمى. ليس بالوعد، لأن الوعود كلها (تقريباً) ذهبت أدراج الرياح، بل ما يشبه القوس، أو الجملة الاعتراضية، في ما يبدو تدفقا بلا رحمة للتاريخ. والمحصلة الإجمالية لهذه الجمل الاعتراضية هي الأبدية.

يمكن التعبير عن هذا الأمر بطريقة مغايرة: لا وجود للسعادة على هذه الأرض دون رغبة قوية في العدل. السعادة ليست شيئا نلاحقه، بل هي شيء، نلقاه، نصادفه، ومع ذلك فإن لمعظم اللقاءات تتمة، وهذا وعدها. لقاء السعادة بلا تتمة، كل ما فيه متوفر في الحال. السعادة هي ما يخترق الأسى.

«فكّرنا أن كل شيء ضاع في العالم، واختفى منذ زمن بعيد، وإذا كنّا الباقين دون الآخرين، فما فائدة العيش؟

«ذهبنا لنتحقق، قال ألاه: »هل ثمة أناس غيرنا في أي مكان؟ أردنا أن نعرف»

فهمهم شاغاتيف، وسأل ما إذا كان معنى هذا الكلام أنهم أصبحوا مقتنعين بالحياة، ولن يموتوا بعد الآن

«لا فائدة في الموت» قال شيركزوف. «أن تموت مرّة ـ ربما تفكّر الآن أن هذا ضروري ومفيد، لكن الموت مرّة لا يساعدك على فهم سعادتك الخاصة، ولا أحد يملك فرصة الموت مرتين. لذا الموت لا يؤدي إلى نتيجة تذكر»[4].

-7

«بينما يشرب الأغنياء الشاي، ويأكلون لحم الضأن، كان الفقراء ينتظرون الدف، ونمو المزروعات»[5].

الفرق بين الفصول كالفرق، أيضا، بين الليل والنهار، والصحو والمطر، الفرق أساسي. تدفق الزمن مضطرب، الاضطراب يجعل أزمنة الحياة أقصر بالمعنى الواقعي والذاتي. الأمد موجز. لا شيء يدوم. هذه صلاة بقدر ما هي عويل.

«(الأم) كانت محزونة لأنها ماتت وجعلت الأبناء يتفجعون عليها، لو كان الأمر في يدها لعاشت إلى الأبد، حتى لا يعاني أحد بسببها، أو يهدر بسببها قلبا وجسدا ولدتهما.. ولكن الأم لم تتمكن من الصمود في الحياة لفترة طويلة»6.

الموت يأتي عندما لا يبقى في الحياة رمق يمكن الدفاع عنه.

-8

«.. كانت كأنها الوحيدة في العالم، متحررة من السعادة والأسى، وأرادت أن ترقص قليلا، في الحال، وأن تسمع الموسيقى، وأن تمسك أيدي الناس الآخرين..»[7]

لقد تعوّدوا على العيش ملتصقين قرب بعضهم، والقرب يخلق فضاءه الخاص، المكان ليس فراغا بقدر ما هو تبادل، عندما يعيش الناس فوق بعضهم، كل ما يفعله شخص يجد مضاعفاته لدى الآخرين، مضاعفات مادية مباشرة. كل طفل يتعلّم هذا الأمر.

ثمة حيّز لا نهائي من التفاوض، ربما الرقيق أو القاسي، التصالحي أو المسيطر، العفوي أو المحسوب، لكن هذا التفاوض اعتراف بأن التبادل ليس مسألة مجرّدة، بل حالة تأقلم بالمعنى المادي. تعبّر لغة العلامات المتقنة التي يستخدمونها عبر الإيماءات والأيدي عن هذه المشاركة المادية. خارج الجدران التعاون طبيعي، كما هو العراك، النذالة شائعة، الخداع الذي يعتمد على الابتعاد مسافة معيّنة نادر الوقوع. لكلمة الخصوصية معناها المختلف على جانبي الجدران. توحي على أحد الجوانب بالملكية، وعلى الجانب الآخر تعني الاعتراف بالحاجة المؤقتة لشخص ما لكي يخلو إلى نفسه لبرهة من الوقت. كل مكان داخل الجدران قابل للاستئجار، لكل متر مربع قيمته، وكل مكان خارج الجدران مهدد بالتحوّل إلى أنقاض، لكل زاوية في مأوى قيمتها.

فضاء الخيارات محدود، أيضا. فهم يختارون بقدر ما يختار الأغنياء، وربما أكثر، لأن كل واحد من الخيارات أكثر صرامة من الآخر، لا وجود لأطياف كثيرة تمنحهم حريّة الاختيار. فالخيار ضيق، بين هذا أو ذاك. وغالبا ما يتم الاختيار بطريقة عنيفة، لأنه يستلزم رفض ما لم يقع عليه الاختيار. كل خيار قريب جدا من التضحية. ومحصلة الخيارات قدر الواحد منهم.

-9

لا تطور (تكتب الكلمة بأل التعريف على الجانب الآخر من الجدران كدليل على الثقة) ولا ضمان. لا مستقبل ينفتح على احتمالات، ولا ضمان لمستقبل. لا أحد ينتظر المستقبل. ومع ذلك، ثمة استمرارية، جيل يتصل بجيل. بالتالي يوجد احترام للعمر، لأن الكبار في السن دليل على الاستمرارية-أو حتى البرهان على أن المستقبل قد عاش ذات يوم في زمن بعيد مضى. الأطفال هم المستقبل. المستقبل هو الكفاح المستمر لضمان أن يحصلوا على ما يكفي من الطعام، وأحيانا فرصة أن يتعلموا ما لم يتمكن الآباء من تعلمه.

«عندما فرغوا من الحديث، طوقوا بعضهم بأذرعتهم، أرادوا أن يصبحوا سعداء على الفور، الآن، قبل أن يأتي المستقبل، وعملهم المثابر، بنتائج السعادة الشخصية والعامة. فالقلب لا يصبر على التأخير، يسأم كأنه لا يؤمن بشيء»[8].

هنا، هبة المستقبل الفريدة هي الرغبة. المستقبل يستحث الرغبة تجاه نفسها. الشباب أكثر شبابا بشكل صارخ أكثر مما على الجانب الآخر للجدران. تبدو الهبة باعتبارها هبة من الطبيعة بكل نفاد صبرها، وثقتها الزائدة. تحظى قوانين الديانة والمجتمع بالقبول. في الواقع بين الفوضى البادية على السطح أكثر مما هي حقيقية، تصبح هذه القوانين حقيقية. ومع ذلك، الرغبة الصامتة في الإنجاب جامحة، ولا يكبحها شيء آخر. إنها الرغبة نفسها التي ستزوّد الأطفال بالطعام، ثم تسعى عاجلا أم آجلا (الأفضل عاجلا) إلى ممارسة الجنس مرّة أخرى. هذه هي هبة المستقبل.

-10

لدى الأعداد الكبيرة من البشر إجابات على أسئلة لم تطرح بعد، ولديهم القدرة أن يعمرّوا أطول من الجدران. الأسئلة لم تُطرح بعد لأنها تحتاج إلى كلمات، ومفاهيم، حقيقية، وهذه المستخدمة اليوم لتسمية الأحداث استحالت بلا معنى. الديمقراطية، الحرية، الإنتاجية..الخ

قريبا، ستطرح الأسئلة، مع ظهور مفاهيم جديدة، لأن التاريخ ينطوي بالتحديد على سياقات كهذه لطرح الأسئلة. قريبا؟ في غضون جيل.

في غضون ذلك تكثر الإجابات بفضل البراعة المضاعفة للحشود في التحرر، في رفض الحدود، في البحث عن شقوق في الجدران، في ولعهم بالأطفال، في استعدادهم إذا اقتضت الضرورة أن يكونوا شهداء، في إيمانهم بالاستمرارية، في اعترافهم المتكرر بأن هبات الحياة صغيرة، ولا تقدر بثمن.

فلتلمس الليلة بإصبعك (أو إصبعها) منابت الشعر قبل النوم.

1 Andrei Platonov soul Translated by Robert and Elizabith Chandler and Olga Meerson, Harvil 2003

2 Soul op cit.

3 The Portable Platonov. Translated by Robert and Elizabeth Chandler, Glas Publishers, University of Birmingham

4 Soul. OP cit.

5 Soul. OP cit.

6 Platonov, The Fierce and Beautiful World, Translated by Joseph Barnes, New York Review of Books 2000

7 , The Fierce and Beautiful World Op cit.

8 , The Fierce and Beautiful World Op cit.

3

عشر رسائل قصيرة عن المكان

1-

يسأل شخص ما: أما زلت ماركسيا؟ لم يسبق من قبل أن كان الدمار الناجم عن السعي إلى الربح، من جانب الرأسمالية، واضح المعالم أكثر مما هو اليوم. يدرك الناس كلهم، تقريبا، هذا الأمر. فكيف إذاً يمكن تجاهل ماركس الذي تنبأ ب، وحلل، هذا الدمار؟ قد يكون الجواب أن الناس، الكثير من الناس، فقدوا اتجاهاتهم السياسية. ولا يعرفون، بلا خرائط ترشدهم، إلى أين يتجهون.

2-

يوميا يتبع الناس علامات تشير إلى مكان ما ليس بيتهم لكنه وجهة مختارة. علامات الطريق، المطار، علامات النزول، علامات المحطات. يرتحل البعض بدافع المتعة، والبعض من أجل الأعمال، والكثيرون بدافع الخسارة أو اليأس، ليكتشفوا بعد الوصول أنهم ليسوا في المكان الذي دلت عليه إشارات طريق سلكوها. وهم حيث يجدون أنفسهم في خطي الطول والعرض الصحيحين، والوقت المحلي، والعملة، ومع ذلك ليس للمكان جاذبية القدر الذي اختاروه.

هم إلى جانب المكان الذي أرادوه. المسافة التي تفصلهم عنه لا يمكن حسابها، ربما تبلغ مساحة الشارع، وربما في المكان الآخر من العالم. لقد فقد المكان ما يجعل منه نقطة الوصول. فقد أرض تجربته.

يحدث، أحيانا، أن يقوم بعض المسافرين برحلة خاصة، ليجدوا المكان الذي رغبوا في الوصول إليه، وغالبا ما تكون أكثر صعوبة مما تصوّروا، رغم أن اكتشافهم لها كان مصدرا لارتياح لا يوصف. ويفشل الكثيرون. لقد قبلوا بالعلامات التي اقتفوا أثرها، ومع ذلك، يبدو كأنهم لا يسافرون، وكأنهم ظلوا دائما حيث هم.

3-

تفاصيل الصورة التي التقطتها أنابيل غوريرو في مأوى الصليب الأحمر للاجئين والمهاجرين في سانغات قرب كاليس، ونفق القناة. وقد أُغلق هذا المأوى مؤخرا بأمر من السلطات البريطانية والفرنسية. كان في المأوى عدة مئات من الأشخاص، يأمل العديد منهم في الوصول إلى بريطانيا. الرجل الذي في الصور ـ ترفض غوريرو الإفصاح عن اسمه ـ من زائير.

شهريا يغادر ملايين من الناس بلادهم. يغادرونها لأن شيئا لا يتوفر فيها، ما عدا الجهود التي يبذلونها ولا تكفي لإطعام أطفالهم. كانت جهودهم تكفي ذات يوم. والآن هذا هو فقر الرأسمالية الجديدة.

بعد أسفار طويلة وشاقة، بعد تجربة الوضاعة التي يمكن أن يتحلى بها البعض، وبعد أن توصلوا إلى الثقة بشجاعتهم العنيدة، التي لا تقارن، بعدها يجد المهاجرون أنفسهم في الانتظار في محطة ترانزيت أجنبية، ثم يتضح أن كل ما تركوه في البلدان التي جاءوا منها كان هم: أيديهم، عيونهم، أقدامهم، أكتافهم،

أجسادهم، ثيابهم، وما يتدثرون به في الليل تحت سقف مفقود.

لكننا نستطيع بفضل صور غريرو أن نفكر كيف أن أصابع رجل هي كل ما تبقى من الكدح في رقعة من الأرض، وأن راحتيه هما بعض ما تبقى من قاع نهر، وأن عينيه هما جلسة عائلية لن يكون فيها. صورة لقارة مهاجرة.

4-

«سأهبط الدرج في محطة تحت الأرض لركوب الخط ب. المحطة مزدحمة هنا. أين أنت؟ فعلا! كيف الجو؟ عند الدخول إلى القطار ـ سأتصل في وقت لاحق..»

من بين مليارات الاتصالات الهاتفية بالجوّال، التي تجري في مدن العالم، والضواحي، وسواء كانت شخصية أم للعمل، فإن معظمها يبدأ بالكلام عن مكان المتصل، إذ يحتاج الناس إلى معرفة أين هم بدقة، كأن الشكوك تساورهم بأنهم ربما ضاعوا. وبما أنهم محاطون بالكثير من التجريدات، فإن عليهم ابتكار علامات حدودهم العابرة واقتسامها مع الآخرين.

قبل ما يزيد على ثلاثين عاما كتب غي ديبورد بطريقة استشرافية: «.. يحطم تكديس السلع كثيفة الإنتاج في الفضاء المجرّد للسوق، جودة الأماكن واستقلالها الذاتي، تماما كما حطّم العوائق القانونية والإقليمية، وكافة القيود على الشركات في القرون الوسطى، التي حافظت على الإنتاج الحرفي».

إن العبارة المركزية في الفوضى العالمية الراهنة هي إعادة التمركز، أو التخلّص منه. ولا يقتصر هذا الأمر على نقل الإنتاج إلى حيث يكون العمل أرخص، والإجراءات أكثر مرونة، بل ينطوي على الحلم المجنون، البعيد عن الساحل، للقوّة الجديدة المتقدمة باستمرار: حلم زعزعة مكانة وثقة كل الأماكن المستقرة سابقا، حتى يتحوّل العالم إلى سوق جارية واحدة.

المستهلك من حيث الجوهر شخص ما يشعر بالضياع، أو يُدفع إلى هذا الإحساس، إلا إذا مارس هو، أو هي، فعل الاستهلاك. بينما تصبح أسماء المنتجات، والعلامات التجارية، أسماء أماكن في لا مكان.

وتستخدم علامات أخرى تعلن عن الحرية، والديمقراطية، العبارات التي سُلبت من حقب تاريخية أقدم، لخلق البلبلة. في الماضي كان التكتيك المستخدم من جانب أناس يدافعون عن بلادهم ضد الغزاة، تغيير علامات الطرق، حيث تُقلب علامة تشير إلى سارغوسا إلى الاتجاه المعاكس في اتجاه بورغوس. وفي الوقت الحاضر، لا يقوم المدافعون، بل الغزاة الأجانب بقلب العلامات لبلبلة السكان المحليين، وتمويه حقيقة من يحكم من، وطبيعة السعادة، وحجم الحزن، وأين يمكن العثور على الأبدية. والغرض من كل عمليات التضليل هذه إقناع الناس أن الخلاص النهائي يتمثل في كونهم زبائن.

ومع ذلك، يتم تحديد الزبائن في مكان التحقق من هويتهم، ومكان الدفع، وليس في المكان الذي يعيشون ويموتون فيه.

5-

مناطق شاسعة كانت ذات يوم أماكن ريفية تتحوّل اليوم أحزمة. تختلف تفاصيل العملية من قارة إلى أخرى ـ أفريقيا، أو أميركا الوسطى، أو جنوب شرق آسيا. ومع ذلك، يأتي التقطيع الأولي دائما من مكان آخر، ومن مصالح الشركات في ملاحقة شهيتها لتحقيق مزيد من التراكم، الذي يعني السيطرة على الموارد

الطبيعية (السمك في بحيرة فيكتوريا، الخشب في الأمازون، البترول في كل مكان يوجد فيه، اليورانيوم في الغابون..الخ) بصرف النظر عن حقيقة صاحب الأرض، أو الماء. وسرعان ما يستدعي الاستغلال في وقت لاحق إنشاء المطارات، والقواعد العسكرية، وشبه العسكرية للدفاع عمّا يتم سحبه إلى الخارج، وعن التعاون مع المافيات المحلية. وقد تعقب هذا الأمر الحروب القبلية، والمجاعة، والإبادة الجماعية.

يفقد الناس في أحزمة كهذه كل إحساس بالإقامة، يصبح الأطفال يتامى (حتى عندما لا يكونون كذلك) تستعبد النساء، ويبأس الرجال. وما أن يحدث هذا فإن استعادة أدنى إحساس بالحياة العائلية يتطلب أكثر من جيل. وكل سنة تمر على هذا النوع من التراكم تطيل أمد الضياع في الزمان والمكان.

6-

في غضون ذلك ـ تبدأ المقاومة السياسية غالبا في غضون ذلك ـ فإن أهم شيء يمكن إدراكه، وتذكره، أن المستفيدين من الفوضى الراهنة يستمرون، بمساعدة معلقيهم المبثوثين في أجهزة الإعلام، في نشر معلومات مضللة، واتجاهات خاطئة. ولا يجب الجدال مع تصريحاتهم، والتعبيرات المسلوبة التي تعودوا على استخدامها، إذ يجب رفضها في الحال وهجرها. فهي لن توصل أي إنسان إلى أي مكان.

كما تستخدم التكنولوجيا التي طوّرتها الشركات، وجيوشها، للسيطرة على اللامكان بسرعة أكبر، من جانب آخرين كوسيلة للاتصال في كل مكان يكافحون في الوصول إليه.

يعبر الكاتب الكاريبي إدوارد غليسانت عن هذا الأمر بطريقة جيدة جدا: « .. طريقة مكافحة العولمة لا تعني إنكار العالمية بل تصوّر النتيجة المحددة لكل الخصائص المحتملة، والتعوّد على فكرة: طالما كانت هناك خاصية واحدة مفقودة، فإن العالمية لن تكون ما ينبغي أن تكونه بالنسبة لنا».

نحن ننشئ علاماتنا الحدودية الخاصة، نسمي الأماكن، نجد الشعر. نعم في غضون ذلك ينبغي العثور على الشعر.

غاريث إيفانز:

بينما يخزّن آجر المساء حرارة ورد السفر
وبينما براعم الورد حجرة خضراء لاستنشاق الهواء
والأزهار كالريح
بينما أشجار البتولا تهمس أقاصيص الريح للأشخاص العجولين
في الشاحنات
بينما أوراق السيّاج تخزّن الضوء
الذي فكّر النهار بأنه أضاعه
بينما باطن معصمها يخفق كصدر دوري في الهواء الدوّار
بينما جوقة الأرض تجد عيونها في السماء
وتفتح العيون لبعضها في الظلام الوافر
تشبث بكل ما هو عزيز

7-

لا مكانهم يوّلد وعيا غريبا غير مسبوق بالزمن. الزمن الرقمي. يتواصل بلا انقطاع في الليل والنهار، وفي الفصول، والميلاد والموت. حيادي كالمال. ومع ذلك، رغم تواصله إلا أنه أحادي تماما. إنه زمن الحاضر وقد احتُجز بعيدا عن الماضي والمستقبل. وفيه للحاضر، فقط، وزنه، بينما يفتقر الآخران إلى الجاذبية. لم يعد الزمن صفا من الأعمدة، بل عمودا واحدا من الآحاد والأصفار. زمن عمودي، لا شيء يحيط به سوى الغياب.

فلتقرأ صفحات قليلة من إيملي ديكنسون، واذهب لمشاهدة فيلم دوغفيل لفون ترير. حضور الأبدية في شعر ديكنسون حاضر عند كل وقفة، أما الفيلم فيظُهر بلا شفقة ما يحدث عندما يُزال كل اثر للأبدية من الحياة اليومية. ما يحدث أن الكلمات كلها، ولغة الكلمات، تصبح بلا معنى.

في حاضر واحد، في زمن رقمي، لا يمكن العثور على مكان، أو إنشاء مكان.

8-

سنأخذ اتجاهنا من خلال منظومة زمن أخرى. الأبدية في نظر سبينوزا (الذي كان أقرب الفلاسفة إلى قلب ماركس) هي الآن. ليست بالشيء الذي ينتظرنا، بل الشيء الذي نصادفه خلال تلك اللحظات القصيرة، ولكن التي لا يحدها زمن، عندما يستوعب كل شيء كل شيء آخر، ولا يحدث تبادل غير مناسب.

تستشهد ريبكا سونيت، في كتابها المتطلّب »أمل في الظلام« بالشاعر السانديني جياكاندا بيلي، الذي يصف اللحظة التي أسقطوا فيها دكتاتورية سوموزا في نيكاراغوا: »خلال يومين، كأن تعويذة سحرية قديمة أصابتنا، أعادتنا إلى سفر التكوين، إلى الموقع الأصلي الذي خُلق فيه العالم«. وحقيقة أن الولايات المتحدة وأتباعها المرتزقة حطموا الساندينيين لا تلغي وجود تلك اللحظة في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

9-

على مسافة كيلومتر من حيث أكتب الآن، ترعى أربعة حمير، أنثيان وجحشان. إنها مخلوقات صغيرة بصفة خاصة، عندما ترفع الأنثيان آذانها ذات الحواف السود تصل إلى ذقني، يبلغ الجحشان أربعة أسابيع من العمر، وهما بحجم كلبين كبيرين من فصيلة الترير، والفرق أن حجم رأسيهما يوازي حجم ضلوعهما على الجانبين.

أتسلق السياج، وأجلس في الحقل مسندا ظهري إلى جذع شجرة تفاح. الحمير صنعت طرقها في الحقل، وبعضها يمر تحت أشجار واطئة أحتاج إلى أكبر قدر من الانحناء لأمر من تحتها، وهي تراقبني. لا وجود للعشب في منطقتين من الحقل، بل تربة تميل إلى الاحمرار، وإلى أحد هاتين المنطقتين تأتي الحمير مرّات كثيرة في اليوم لتتقلب على ظهورها. الأنثى أولا، ثم الجحش. وقد أصبح للجحشين الآن خطوط سوداء على كتفيهما.

إنها تقترب مني الآن، تفوح منها رائحة الحمير والزريبة ـ لا تشبه رائحة الخيل، فهي اقل عبقا ـ الأنثيان تلامسان أعلى رأسي بفكيهما السفليين، أنفاهما أبيضان، وحول عينيهما ذباب أكثر هياجا من النظرات المتسائلة في العينين.

وعندما تقفان في الظل على طرف الغابة يطير الذباب، ويمكن أن تقفا هناك، بلا حراك تقريبا، لمدة نصف ساعة. في الظل، في منتصف النهار، يبطئ الزمن. وعندما يرضع احد الجحشين (حليب الحمير هو

الأقرب إلى حليب البشر) ترخي الأنثى أذنيها إلى الخلف، مشيرة إلى ذيلها.

أركز انتباهي، وأنا محاط بالحمير الأربعة، تحت الشمس، على قوائمها، ست عشرة قائمة، ضآلتها، رقتها، دقة تكوينها، وثقتها (أقدام الخيل تبدو هستيرية بالمقارنة). أقدامها هي أقدام لعبور الجبال، التي لا يمكن أن يجيد عبورها حصان، أقدام لحمل الأثقال التي لا يمكن تصوّرها إذا حصر الإنسان تفكيره بالركب، والسيقان، العراقيب، والعظام النحيلة، ومفاصل الرسغ، والحوافر. أقدام الحمار.

الحمير تبتعد، محنية الرأس، ترعى، لا يفلت صوت من آذانها، عيون عارية. في التبادل الحاصل بينا، في رفقة منتصف النهار التي نقدمها لبعضنا ثمة طبقة سفلية لما يمكن أن أصفه فقط بالعرفان. أربعة حمير في حقل في شهر حزيران في العام **2005**.

10-

أجل ما زلت، ضمن أمور أخرى، ماركسياً.

جون بيرغر
كاتب بريطاني